الفصل السادس

الكنايات المعرفيّة

الفصل السادس

الكنايات المعرفيَة

نقصد بالكناية المعرفية ذلك التراكيب الكنائية المتعلقة بالحواس من سمع وبصر وفؤاد، والتي بها يتم تحصيل العلم والمعرفة بوصفها أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ فيمتاز الانسان بها من المخلوقات الأخرى.

وقد حثّ القرآن الكريم حثّاً كبيراً على استخدام هذه الحواس بوصفها وسائل لتحصيل المعرفة في كثير من آياته الكريمة، وأعطى لهذه الحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال: والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب [1]. فقال له:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [2]. بل القرآن يخطو خطوة أعمق في حث الناس على استخدام بصائرهم وهي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية، وبصرية، ولمسية، لا حصر لها، وذلك من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة [3].

وتطالعنا في القرآن آيات كثيرة تحث على تحريك العقل الذي منحه الله لبني آدم [4]، وآيات تدعو الانسان إلى التفكير العميق بكل ما يحيط به من موجودات [5]، وما يُقال عن التفكر يمكن أن يُقال عن (التفقه) [6]. والتفقه: " خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تنتج عملية التفكير، وتجعل الانسان أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً

---

(١) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص ٧١. وينظر: نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، ص ١٥١ وما بعدها. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة، ناجي حسين جودة، ص ٩٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٣٦.

(٣) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٧٦. وينظر: السور الآتية: الأنعام، الآية: ١٩٤. والقصص، الآية: ٧٢. والذاريات، الآية: ٢١.

(٤) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: ١٧١ و ٢٤٢. والعنكبوت، الآية: ٤٣.

(٥) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: ٢٦٦. والأنعام، الآية: ٥٠. والروم، الآية: ٨٧.

(٦) ينظر: السور الآتية: النساء، الآية: ٧٨. وهود، الآية: ٩١. وطه، الآية: ٢٨.

لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للتحاور المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات "(١).

والحواس بوصفها منافذ للتعقل والتفكر والتفقه ومن ثم المعرفة هي التي تعطي الانسان قيمته وتفرده، وتبوّئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفة لله في الأرض(٢).

وبالمقابل نعى القرآن على الذين لا يستخدمون حواسهم وعقولهم وبصائرهم، الذين ينساقون الانسياق الأعمى وراء أي شيء، لذلك كان القرآن المعجزة العقلية الكبرى، يقول السيوطي: "وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية.. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية.. لأن هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصّت بالمعجزة العقلية الباقية (القرآن) ليراها ذوو البصائر "(٣).

ومن ثم كانت للمعرفة مكانةً عظيمةً في الاسلام الذي يدعو إلى التفكير لتحصيلها ومعاناتها، ونعى على الذين لا يحاولون التفكير والتأمل ولا يستخدمون حواسهم وطاقاتهم لما خلقت له فهي معطلة لا تؤدي وظيفتها المرجوة التي يهدف إليها القرآن بوصفها وسائل هادية إلى الإيمان، فإذا ما تعطلت تؤدي بالانسان إلى الضلال والكفر، فهم على هذه الحال بمنزلة البهائم والأنعام بل أضل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٤).

وقد صوّر القرآن بالأسلوب الكنائي الموحي حال الذين عطّلوا حواسهم وعقولهم وبصائرهم من الكافرين والمنافقين والمشركين فهم يزرحون في ضلال وعمى وكأنهم قد سُلبوا هذه الوسائل، وسائل الإدراك والمعرفة، فيتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام(٥).

وبذلك تجلي هذه الكنايات التصويرية عالم الكفر والضلال أجلى بيان، وبالمقابل تجلي كنايات تصويرية أخرى عالم الإيمان والهدى، فيتقابل أمام الفكر والنفس عالمان

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٨٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٨٠.
(٣) الاتقان في علوم القرآن: ٤ /٣. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة ـ ص ٢٤ وما بعدها.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. وينظر: سورة الفرقان، الآية: ٤٤. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠. وسورة هود، الآية: ٢٠. وسورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٥) ينظر: سورة محمد، الآية: ١٢. وسورة المرسلات، الآية: ٤٦.

متناقضان في دلالاتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إيحاؤها.

وسنحاول توزيع هذه الكنايات كل على انفراد ثم نحاول بيان دلالاتها وإيحاءاتها التي تهدف إليها.

الأكنّة والوقْر والحجاب:

ترد هذه الكنايات الثلاث في سياق إعراض الكافرين وعلى لسانهم خطاباً منهم للرسول ﷺ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (١).

نلحظ في الآية الكريمة ثلاث كنايات وصفية متواشجة في إخراج المعنى المُكنى عنه الذي يجلّي العالم الداخلي والنفسي وللكافرين، ويكشف عن موقفهم وسفاهتهم إزاء ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ، فهم يصمون أنفسهم بقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ و﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ و ﴿ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، بهذا الترتيب الذي يدل على تصميمهم على الكفر وإصرارهم عليه، إذ جعلوا قلوبهم في أكنة ابتداءاً فعطلّوها عن الإدراك، وإذا ما تعطلت القلوب فمن البدهي، أن تكون الآذان معطلة عن السمع، فضلاً عن حاسة البصر التي دلّت عليها الكناية ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وبذلك يتجلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه.

والأكنة: الأغطية جمع كنان (٢)، وهي كناية تصور المعنى المراد بأسلوب مجازي، فليس ثمة أغطية محسوسة على قلوبهم أو عقولهم، وكذلك الكناية ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فليس ثمة في آذانهم على الحقيقة، والوقر: الثقل في السمع، يُقال: " باذنه وَقْرٌ: ثقلٌ، وأذن وَقِرَةٌ وموقورة، وقد وُقِرت أذني، ووقرت عن استماع كلامه " (٣) فهو التصوير الذي يشع بدلالاته إذ يجعلنا نتخيل قلوبهم وهي مغلفة بأغطية محكمة لا ينفذ إليها شيء مما يقوله الرسول ﷺ ويدعوهم إليه، فيكون التصوير كنايةً عن نبو قلوبهم وإعراضهم عن تقبّل الحق

(١) سورة فصلت، الآية: ٥. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٢٥. وسور الاسراء، الآية: ٤٦. وسورة الكهف، الآية: ٥٧، في كناية الأكنة. وينظر: كناية (الوقر) سورة لقمان، الآية ٧. وسورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٢) ينظر: لسان العرب: ١٣ / ٣٦١. (كنن)، وينظر: المفردات، ص ٦٦٤.
(٣) أساس البلاغة، ص ٥٠٦ (وقر).

الذي يدعوهم إليه، وإصرارهم على الكفر إصراراً كبيراً لا سبيل للإيمان إليه كما تُوحي الكناية به.

وفوق الأكنة التي غطّت قلوبهم تغطية ساترة لها، في آذانهم صمم فهي لا تسمع ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ لا تسمع سماعاً يؤدي بهم إلى تفكير وتفقه ينتهي بهم إلى الهدى والإيمان، فضلاً عن ذلك فإن في هذه الكناية إيحاء السخرية منهم، وهو إيحاء يأتي من استعمالات المادة

﴿ وَقۡرٞ ﴾ ، فالأصل في استعمالها في الدواب ـ بكسر الواو ـ ﴿ وِقۡرٌ ﴾ ، ثم استعملت في ثقل السمع ـ بفتح الواو ﴿ وَقۡرٌ ﴾ ـ والوِقر: هو الحمل الذي يُحمل على الدابة، ويقال: أوقر البغل أو الحمار.. واستوقرتِ الإبلُ شحماً: أثقلها السِّمن.. ووُقِرتْ الدابة، ووقِرتْ فهي موقورة ووَقِرةٌ في حافرها هَزْمة " (1)، فهو إيحاء مقصود يجري على ألسنتهم صفة لهم، فضلاً عن أنه يملأ نفس المتلقي سخرية منهم وازدراء.

تكتمل الصورة التي تبين حالهم بالكناية الثالثة التي يدمغون بها أنفسهم بالعمى فأعينهم لا ترى، فبينهم وبين الداعي محمد ﷺ حجاب كثيف مانع من الرؤية ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ قال الزمخشري: " كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي " (2)، وهو حجاب كثيف كما أفاد الحرف (من): " فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ فائدة ؟ قلت: نعم، لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منّا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها " (3)، فهم يسخرون من أنفسهم، إذ الكناية تجعلنا نتخيل فيها الكافرين وقد أقاموا بينهم وبين الرسول ﷺ الذي يدعوهم إلى سماع الخير ورؤيته حجاباً كثيفاً مانعاً خوفاً من أن يصل كلامه إلى آذانهم وقلوبهم.

وبذلك تتعطل لديهم وسائل المعرفة والعلم بهذه الحجب الثلاثة التي صوّرتها الكنايات: حجاب الأغطية التي تلف قلوبهم وتغطيها بإحكام، وحجاب الصمم في أسماعهم، وحجاب العمى في أبصارهم.وباجتماعها تتعمق دلالة المعنى المُكنى عنه:عنادهم وتصميمهم

(1) أساس البلاغة ، ص ٥٠٦ (وقر). وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(2) الكشاف: ٤ / ١٤٤.
(3) م. ن: ٤ / ١٤٤ـ١٤٥.

على الكفر وإصرارهم عليه، ويتصاعد هذا المعنى تمكناً من قلوبهم بما انتهت به الآية الكريمة ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فهو الاصرار على ما هم عليه من كفر وعناد، أي: " اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإننا مستمرون على ديننا "(١). فهو الامعان في العناد يُراد منه تيئيس الرسول ﷺ من استجابتهم له ولما يدعوهم إليه.

ولا يخفى ما في الآية من إيحاء قوي دال على صبر الرسول ﷺ على ما كان يلقاه من معاناة وآلام وهو يدعو هذه النفوس الكافرة الكارهة للخير والهدى والإيمان.

ولا يخفى أيضاً أثر هذه الصور الكنائية المتتابعة في نفس المتلقي من حيث ترسيخ المعاني والصفات بإكسائها ثوب الماديات المحسوسة،وكأنه وقف على القضية مشفوعة بدليلها، وعلى الدعوى في طي برهانها.

غُلْف:

تختص هذه الكناية التصويرية بوصف حال اليهود، وقد وردت في موطنين من القرآن - وعلى لسانهم - منهما قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (٢) ﴿ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ كناية تصويرية تجسّد فعل اليهود إزاء دعوة الرسول ﷺ بهذا القول الغليظ الذي يتبجحون به.

وهذه الكناية قائمة في بنيتها على الاستعارة وفيها تشبيه قلوبهم بشيء مغلّف ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه (الغلاف) على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك لتعميق دلالة عدم استجابتهم،لأن قلوبهم لا تعي شيئاً فهي مغشاة بغلاف لا ينفذ إليها شيء فهي لا تعي الحق ولا تقبله. والاستعارة هنا ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة تعبير تقودنا إلى معنى مكنى عنه آخر يتوارى خلفها، ويتمثل هنا في عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه من ضلال وكفر وتصميمهم عليه، فضلاً عن تيئيس للرسول ﷺ من إيمانهم بما يدعوهم إليه.

وقد أورد الراغب لهذا التعبير الكنائي القائم على الاستعارة معاني أخرى، يتجلى فيها جانب من شخصية اليهود التي تمتاز بالتكبر والتبجح والاستهزاء والتكذيب. قال

(١) صفوة التفاسير: ٣ / ١١٦.
(٢) سورة البقرة ، الآية: ٨٨. وينظر: سورة النساء ، الآية: ١٥٥.

الراغب: " قيل: هو جمع أغلف كقولهم سيف أغلفُ - أي هو في غلاف. وقيل معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل معناه: قلوبنا مغطاة. وقيل: قلوبنا غُلف، هي جمع غلاف.. أي هي أوعية للعلم تنبيهاً أنّا لا نحتاج أن نتعلم منك فلنا غنية بما عندنا " (١).

فقلوبهم أوعية للعلم - كما يزعمون - يوحي بتكبرهم وتكذيبهم، فهم لا يرضون أن يدعوهم إلى خير وهدى أحد، فهم شعب الله المختار واحباؤه كما يزعمون (*).

وقلوبهم أوعية للعلم فلا يحتاجون أن يتعلموا من الرسول ﷺ غنية بما عندهم يوحي - أيضاً - بالتبجح والإدعاء، فضلاً عن الاستهزاء بمن يدعوهم وتيئيسه من اسلامهم.

وكلها معانٍ وإيحاءات تنبع من هذا التعبير التصويري تتجمع فتجلي صفات تميّز اليهود من غيرهم كفراً وتكبراً وتكذيباً ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يقع الإيمان إلاّ لقلّة قليلة منهم،ليس لقصور في إفهامهم كما زعموا بقولهم - قلوبنا غلف - ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وحجبهم عن الإيمان وأسبابه.

الختم:

ورد الختم في القرآن في عدة مواضع من ذلك قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

ثمة نلحظ كنايتين تصويريتين، الأولى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة، حيث شبّهت قلوب الكافرين التي لا تستجيب للحق، وأسماعهم التي لا تسمع داعي الحق، شبّهت بالوعاء المختوم عليه فلا يصل إليه شيء (٣)، فهي قلوب وأسماع معطلة كما جسدتها الاستعارة على حقيقتها فهي لا تنتفع بالخير، تقول على حقيقتها - وإن كانت في واقعها غير ذلك - ولمّا كانت لا تنتفع بهذه القلوب انتفاع الخير الذي يودي بها إلى الإيمان ولا تنتفع بأسماعها سماع الهدى والحق، كانت في حقيقتها كما

(١) المفردات ، ص ٥٤٦. وينظر: لسان العرب: ٩ / ٢٧٠ (غلف).
(*) ينظر: سورة المائدة ، الآية: ١٨. وسورة الجمعة ، الآية: ٦ مثلاً.

(٢) سورة البقرة ، الآيتان: ٦ - ٧. وينظر: سورة الأنعام ، الآية: ٤٦. وسورة يس ، الآية / ٦٥. وسورة الشورى ، الآية: ٢٤. وسورة الجاثية ، الآية: ٢٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط: ١ / ٥١ ، وصفوة التفاسير: ١ / ٣٣.

صوّرتها الاستعارة،فكأنهم بها مسلوبو وسائل الادراك والمعرفة،ويزداد حالهم ظلاماً بالتعبير الاستعاري الآخر ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ وفي الاستعارة تشبيه أبصارهم لعدم رؤيتها نور الهداية بشيء مغطّى بغشاء يمنع الرؤية، فهي في ظلام لا ترى شيئاً ولا تبصر. وبذلك تتعطّل وسائل المعرفة عند الكافرين بالختم على القلوب والأسماع، والتغشية على الأبصار.

وحالتهم هذه التي أخرجتها الاستعارتان تمثل صورة من صور العذاب المعنوي، إذ لا يتمتّعون بقلوبهم وأسماعهم وابصارهم لما خلقت له، فهم في غمرة من جهل وضلال نتيجة الكفر، وفوق عذابهم هذا العذاب الذي أخبرت به الآية ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ الذي يناسب طبيعتهم التي استوى عندها الانذار وعدم الانذار.

والآية بما قبلها من تصوير استعاري ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ ﴾ و﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ يختفي وراءه معنى مكنى عنه، فضلاً عمّا أوحى به من معانٍ تصويرية، أي يكون التعبير الاستعاري هنا وسيلة تعبيرية وتصويرية تقودنا إلى المعنى المكنى عنه، وبذلك يكون التعبير الاستعاري بمجمله كناية عن صفة تتمثّل في تصميم هؤلاء على الكفر والإصرار عليه [1]، يتناسب في قوته مع قوة التصوير الاستعاري الذي صوّر قلوبهم الذي استوى عندها الانذار وعدم الانذار.

الطبع:

ورد الطبع في القرآن الكريم في عدّة مواطن، من ذلك قوله ـ تعالى ـ في وصف المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [2].

﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة كالختم، حيث شبّه ﷺ قلوب المنافقين التي آمنت بالوعاء المطبوع عليه فلا يدخل إليه شيء، فقلوبهم مغلقة عن الإيمان، فاقدة أي استعداد له.

وفي استعارة (الطبع) إيحاءات تناسب طبيعة المنافقين. قال ابن منظور: " الطَّبْع، بالسكون: الختم،وبالتحريك: الدَّنَسُ، وأصلهُ من الوسَخ والدَّنس يغشيان السيف، ثم استعير

(١) ينظر: التبيان في البيان ، للطيبي ، ص ٢٢٧.
(٢) سورة المنافقون ، الآية: ٣. وينظر: السور الآتية: النساء ، الآية: ١٥٥. والأعراف ، الآيتان: ١٠٠ ـ ١٠١. والتوبة ، الآيتان ٨٧ ، ٩٣. ويونس ، الآية: ٧٤. والنحل ، الآية: ١٠٨. والروم ، الآية: ٥٩. وغافر ، الآية: ٣٥. ومحمد ، الآية: ١٦.

فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح.. والطَّبْع ملْؤك السِّقاء حتى لا مزيد فيه من شدّة مَلْئه " (١). فالطبع ذو إيحاءات أوسع من الختم، لذلك قال الراغب: " الطبع هو أعمّ من الختم " (٢) فقلوب المنافقين تناسبها استعارة (الطبع) دون الختم (*)، فهي قلوب قد ملئت بالأوزار والآثام وغيرهما من المقابح، وقد أشار إليها القرآن في تعبير استعاري آخر وهو (المرض) في مواضع شتى لبيان حال المنافقين كما في قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (٣). فقوله: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ استعارة تصريحية بدلاً من " في قلوبهم نفاق " (٤). وذلك لأن " المرض في الأجسام حقيقة وفي القلوب استعارة، لأنه فساد في القلوب، كما أنه فساد في الحقيقة، وإن اختلفت جهة الفساد في الموضعين " (٥).

وذهب الزمخشري إلى جواز استعمال المرض في القلوب حقيقةً ومجازاً، يقول في قوله - تعالى -: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ واستعمال المرض يجوز أن يكون حقيقةً ومجازاً، فالحقيقة أن يُراد الألم، كما تقول: في جوفه مرض، والمجاز أن يُستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجبن، والضعف، وغير ذلك ممّا هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك " (٦).

وتوجيه (المرض) على التصوير الاستعاري أولى لِما في الإيحاء بالمعاني التي ذكرها الزمخشري، ولعلها المقصود من الاستعارة، فضلاً عن تواشجها مع استعارة (الطبع)، كما أن تشبيه الحالة النفسية المريضة للمنافقين بالمرض الذي يعتري الأجسام فيه

---

(١) لسان العرب: ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٣ (طبع).
(٢) المفردات ، ص ٤٤٩.
(*) لعل لذلك لم يستخدم القرآن (الختم) مع المنافقين.
(٣) سورة البقرة ، الآيات: ٨ - ١٠. وينظر السور الآتية: المائدة ، الآية ٥٥. والأنفال ، الآية: ٥٠. والتوبة ، الآية: ١٢٦. والحج ، الآية: ٥٣. والنور ، الآية: ٥٠. والأحزاب ، الآيات: ١٢، ٣٢ ، ٦٠. والمدثر ، الآية: ٣١.
(٤) وقد تأتي استعارة (المرض) تعبيراً عن الكفر أو الشرك كما في قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ من الآية ٤٩. وكذلك في سورة الأحزاب ، الآيتان: ١٢ ، ٦٠.
(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١١٣.
(٦) الكشاف: ١ / ١٧٥ - ١٧٦.

تصوير حسّي يجسّد حقيقة قلوبهم المعطلة وظيفتها المطبوع عليها أمام العين والفكر ليتملّى المعاني. فالمرض الجسدي يعني التلف والفساد وتعطيل القوى، فضلاً عمّا ينطوي عليه من بعد نفسي يلّم بالمبتلى بهذا المرض الجسدي، فإن المرض القلبي الاستعاري كذلك يحقق لنا هذه الدلالة ولكن على نحو أعمق وأشمل وذلك لاقتران المرض بالقلب دون سائر الأعضاء الجسدية، إذ إنّ القلب هو العضو الرئيس في البدن، ومرضه وفساده يعني مرض الجسد كله وفساده، ونستأنس في هذه الدلالة الشاملة بما روي عن الرسول ﷺ: ((ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب)) (١).

وفساد الجسد بفساد القلب الإستعاري يعني تعطيل حواسه السمعية والبصرية فهي لا تؤدي وظيفتها الحقيقية، فهي معطلة ميتة(٢). ولعل في هذا تفسيراً لاستعارة الطبع على قلوبهم، فهي قلوب مريضة لا يُرجى منها إيمان.

واستعارة (الطبع) التي صوّرت قلوب المنافقين المريضة التي ملؤها الآثام والأوزار وغيرهما من المقابح فهي مريضة فاسدة يتوارى خلف سجفها معنى مُكنى عنه فتكون الاستعارة كناية عنه ويتمثّل في فقدان نفوس المنافقين وقلوبهم الاستعداد للإيمان والهدى، و هذا المعنى راجع أساساً إلى طبيعة النفس المنافقة التي تتردد بين الإيمان والكفر، لا اعتقاداً فيهما، ولا اعتناقاً لهما، وإنما تخفيّاً بهما عن أعين الناس وعقولهم، و كل منا يظهره المنافقون ويتمثلون فيه من الإيمان والكفر إنما هو تلوّن يكتسونه ليبلغوا به أهدافهم كما يقول ﷻ عنهم: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (٣). ويقول الزمخشري في تفسير ذبذبة المنافقين: " ومعنى مذبذبين ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون، وحقيقة المذبذب الذي يذبّ عن كلا الجانبين: أي يذاد و يدفع فلا يقرّ في جانب واحد،إلاّ أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذبّ، كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذبّ عنه(ذلك) إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين" (٤)،و في هذا تصريح بمعنى فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد سواء أكان اعتقاداً

(١) صحيح البخاري: ١ / ٢١.
(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ، ص ٨٧ـ٨٨.
(٣) سورة النساء ، من الآية: ١٤٣.
(٤) الكشاف: ١ / ٥٧٤.

صحيحاً وهو الإيمان، أم خاطئاً وهو الشرك، فالنفاق شذوذ على الطبع السوي، ولذلك اختار القرآن لفظ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ ﴾ المشتق من الذب بمعنى الذود والدفع، وحيث كان المنافقون في صيغة اسم المفعول ﴿ مُّذَبْذَبِينَ ﴾ فهم الذين وقع عليهم الذود من جانب المؤمنين والمشركين كليهما (١). فقلوبهم مطبوع عليها لأنها خارجة على الطبع السوي، فلن يصل إليها ايمان ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) بهذا الاطلاق كما أفاد حذف المفعول به، أي لا يفقهون أي شيء قط نتيجة الطبع على قلوبهم.

الأقفال:

وردت (الأقفال) في موطن واحد من القرآن الكريم، وهو قوله - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٣)

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية، حيث شُبِّهت قلوب الكافرين بالأبواب المقفلة فلا يدخل إليها شيء من معاني القرآن، وأكد معنى الاستعارة الاستفهام بالهمزة الذي أفاد تقرير النفي والانكار وفيه بيان حال قلوبهم وتصويرها بالصورة التي أخرجتها الاستعارة وتسجيلها عليهم، قال الزمخشري: " ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر " (٤). وقال في تنكير القلوب واضافة الأقفال إليها في الصورة: " أما التنكير: أن يُراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلكوأما إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح "(٥). والاستعارة تجعل المتلقي يتخيل هذه الصورة الغريبة المختصة بتصوير قلوب الكافرين التي ضُربت عليها الأقفال فهي مغلقة. فالكفر في الآية يتجسد في صورة الأقفال التي تغلق القلوب الكافرة فلا يدخل إليها شيء فهي معطلة عن تدبر ايات القرآن، لذلك تبدأ الآية بالاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ فهو انكار لوقوع التدبر من هذه القلوب، لذلك ينتقل الحديث بأم التي تفيد

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٢٥٩.
(٢) سورة التوبة ، من الآية ٨٧. وسورة المنافقون ، من الآية ٣.
(٣) سورة محمد ، الآية: ٢٤.
(٤) الكشاف: ٤ / ٢٥٨.
(٥) المصدر نفسه: ٤ / ٢٥٨.

الاضراب يقرر حقيقتهم وحالهم، والاضراب هو: الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه(١)، أي: الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتقريع، وهي الحالة التي رسمتها الصورة الاستعارية المتخيّلة التي تشي بقسوة تلك القلوب التي لا تضيء المعرفة جوانبها ولا ينوّر الإيمان طريق وظائفها قال الرازي: " إنّ القلب خُلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الانسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر "(٢).

ومن وراء سجف الاستعارة نلمح معنى مكنى عنه ويتمثل في إصرار هؤلاء على الكفر وتصميمهم عليه وإعراضهم عن تدبر ايات القرآن المعجز المبين.

الأغلال:

ويقدم القرآن صورة حسيّة غليظة تخرج المشركين في صورة غريبة: أيديهم قد شُدّت إلى أعناقهم وموضوعة تحت أذقانهم،فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى لا يخفضونها وضُرب من أمامهم سدّ ومن ورائهم سدّ، فجُعلت أعينهم مغطاة فهم لا يبصرون. ذكرا ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(٣).

ومعنى الآية كما قال ابن كثير: " إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كمن جُعل في عنقه غل وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه(٤)، فارتفع رأسه مقمحاً "(٥). وقال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس و غض البصر، يُقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب(٦)، " يقال: قمح البعير فهو قامح، إذا روى فرفع رأسه، ومنه شهراً قماح، لأن الابل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان "(٧). وتكتمل صورة الكافرين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ قال أبو السعود: " و هذا تتمة للتمثيل وتكميل له، أي: وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، و من

(١) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني ، د. فضل حسن عباس ، ص ١٢٧.
(٢) التفسير الكبير: ٢٨ / ٦٦.
(٣) سورة يس ، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٤) **الذقن:** مفرد الأذقان وهو مجمع اللحيين ، ينظر: لسان العرب: ١٣ / ١٧٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٤٢.
(٦) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٥٦٦ ـ ٥٦٧ (قمح).
(٧) الكشاف: ٤ / ٤.

ورانهم سدّاً كذلك ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا بين ستّين هائلين،و هذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات " (١)

وهذا التصوير الذي رسمته الآيتان صورة بالغة السخرية والتهكم بالمشركين، ويتجلى ذلك من خلال تصويرهم مغلولين في أعناقهم بأطواق من حديد، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرةً، ولا يستطيعون أن يومنوا إلى أسفل، وإنما تظل أعناقهم ووجوههم مرفوعة إلى أعلى، لا يتحرك منها إلاّ عيونهم التي لا تُبصر شيئاً (٢)، فضلاً عن تشبيههم بالابل حين تُروى من الماء فترفع أعناقها ورؤوسها إلى أعلى فهم في تصويرهم هذا ممنوعون عن النظر والرؤية للاهتداء بالدلائل والآيات بسبب تلك الأغلال والحواجز والسدود التي غشيت أبصارهم وهذه العوائق الحسيّة تشير إلى الأغلال النفسية والفكرية والعقلية التي كبّلوا بها أنفسهم فهم لا يهتدون.

والتصوير بمجمله يتحول إلى كناية موحية بالمعنى المُكنى عنه الذي يتوارى خلف سجفه، وقد أشار الزمخشري إليه بقوله: " تصميم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوانهمفي أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له.. في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعاسون عن النظر في آيات الله " (٣)، فهو الإعراض والإمعان في الكفر عن إرادة وتصميم يؤديان إلى إغلاق منافذ المعرفة ومن ثم فما لهداهم وإيمانهم من سبيل، وأيّ صورة يمكن لها أن تجلّي هذه الصفات وتجسّد هذه المعاني غير صورة الكناية القرآنية المعجزة بلفظها الوجيز ونظمها المحكم ورسمها الراسخ في أعماق النفس المتلقية.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧ / ١٦٠.
(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٣٦٠.
(٣) الكشاف: ٤ / ٣ -٤.

و في كناية الأغلال تسلية للنبي محمد ﷺ وتسرية عن نفسه فهو لم يقصّر في إنذارهم، فهم المانعون أنفسهم من الإيمان، فقد جعلهم الله حطباً للنار [1]، بسبب إعراضهم وإصرارهم على الكفر.

الغطاء:

يرد الغطاء في موطنين من القرآن وفي سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، والذي يهمنا قوله - تعالى -: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [2].

نلحظ التعبير الكناني التصويري ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يخرج الكافرين عمياً عن النظر في آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، سواء المقصود بها النظر في آيات القرآن وتأمل معانيها وتبصرها - أو الآيات التي ينبّه عليها القرآن والمبثوثة في السموات والأرض والكون التي إذا ما نُظر فيها دلّت على قدرته ﷻ ووحدانيته فيذكر بالتعظيم [3]. فأعينهم محجوبة عن النظر في آيات الله بهذا الغطاء المانع فهي معطلة، وفوق هذا العمى لا يستطيعون السمع ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني: " وكانوا صمّاً عنه، إلاّ أنه أبلغ، لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، و هؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع " [4]. فهم عميّ صمٌّ كما وصفهم في موضع بقوله - تعالى -: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [5] وغيرها من الآيات الكريمة التي تلفت الانتباه إلى عطب حواس الكافرين وموتها من سمع وبصر وأفئدة [6]، وكلها تعابير استعارية تجسّد حالهم، حيث يُسلبون البصر والسمع، و هم في حقيقتهم يبصرون ويسمعون، لكنهم لا يبصرون بصر هداية بآيات الله، ولا يسمعون صوت الحق سماع رشد ويقين، فكأنهم معطلو حاسة

(١) ينظر: التصوير البياني ، حفني محمد شرف ، ص ٢٤٨.
(٢) سورة الكهف ، الآيتان: ١٠٠ -١٠١. وينظر: سورة ق ، الآية: ٢٢.
(٣) ينظر: الكشاف: ٢ / ٥٨٥.
(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٥٨٥.
(٥) سورة البقرة ، من الآية: ١٨.
(٦) ينظر: السور الآتية: البقرة ، الآية: ١٧١. الأنعام ، الآيتان: ٢٥ ، ٣٩. الأنفال ، الآية: ٢٢. يونس ، الآيتان: ٤٢ ، ٤٣. هود ، الآية: ٢٠. الرعد ، الآية: ١٩. الإسراء ، الآية: ٤٦. الكهف ، الآية: ٥٧. الأنبياء ، الآية: ٤٥. فصلت ، الآيتان: ٥ ، ٤٤. الزخرف ، الآية: ٤٠.

السمع والبصر لأنهم حرموا أنفسهم من وظيفتهما الحقيقية التي خلقتا من أجلها.بل إنّ القرآن يصوّر هؤلاء الكافرين في حالة موت كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (١)، فالكافرون موتى بهذه الاستعارة التصريحية حيث استبدل لفظ الكافرين" بالموتى"بجامع عدم التبصر والوعي في الاثنين، فهم مسلوبو الحياة الحقيقية التي يبعثها الإيمان بالله الذي يحيي القلوب والأبدان، لأن المقصود من الحياة " الادراك والعقل فإذا عُدِما فقد عُدِمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتتنزل الحياة منزلته " (٢).

فالغطاء على أعين الكافرين ﴿ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ وعدم استطاعتهم السمع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ فضلاً عمّا أشار إليه بهذا التصوير الحسي المؤثر من معنى العمى عن آيات الله المشاهدة بالأبصار إلى عمى بصائرهم، وعدم سماعهم صوت الحق سماع هداية وإيمان،فإنهما يؤديان إلى معنى مُكنى عنه يتوارى خلف ذلك الألفاظ يتمثل في إعراض قلوبهم عن ذكر الله في حياتهم الدنيا عن إرادة وتصميم، وهو معنى يتسق مع مشهد عرض جهنم لهؤلاء الكافرين ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ، فالكافرون الذي أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء، ولكأن في اسماعهم صمماً، تُعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها، كما كانوا يعرضون عن ذكر الله، فاليوم لا يستطيعون إعراضاً، لقد نُزع الغطاء عن عيونهم نزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاءاً وفاقاً، فالتعبير القرآني يتسق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن (٣).

وفي ضوء ما تقدم من الكنايات التي صوّرت موانع الإدراك عند الكافرين والمشركين والمنافقين التي حالت بينهم وبين المعرفة التي يدعوهم إليها القرآن الكريم يتجلّى عالم الكفر والضلال وما فيه من جهل وتقليد أعمى، عالم تُلغى فيه إنسانية الإنسان إذ تعطّل وسائل الإدراك والمعرفة عنده فلا يفترق حينئذٍ عن البهيمة لأنه أصبح كمن لا عقل له فهو والبهائم سواء.

---

(١) سورة الروم ، الآية: ٥٢. وينظر: سورة الأنعام ، الآية: ٣٦. وسورة النمل ، الآية: ٨٠.
(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠. والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) في ظلال القرآن: ٥ / ٤١٤.

وإزاء عالم الكفر والضلال الذي يرزح فيه الكافرون يجلّي لنا القرآن بالتقابل عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين أو لي الألباب الذين تفتّحت وسائل الإدراك والمعرفة لديهم واحتيت بالنور والهدي الإلهي فتيقّظت حواسهم حقّ التيقظ وهي تستقبل دعوة الإيمان بآياته الكريمة بوعي وإدراك.

ويصور القرآن بالأسلوب الكنائي الموحي حال المؤمنين ومشاعرهم في بعض آياته التي نتخذ منها شواهد تجلّي عالماً مضاداً لعالم الكافرين في السلوك والمشاعر والإحساس.

لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْيانا:

تجلّي هذه الكناية التعريضية سمة من سمات عبد الرحمن في قوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١).

﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ كناية، وجاء في تفسيرها: " ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا ﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو اثبات له، ونفي للصم والعُمى، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلّماً هي نفس للسلام لا للقاء. والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكّر بها، وهم في اكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون واعية، لا كالذين يذكّرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكّر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصّرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم " (٢). فالكناية تعريضية تنفي الصم والعمى عن عباد الرحمن (المؤمنين) وتثبته للكافرين والمنافقين وأشباههم.. وهي كناية قائمة في بنيتها على استعارتين تصريحيتين: ﴿ صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ حيث إنّه شبّه الكافر أو المنافق (المستعار له) بالأصم (المستعار منه) ثم حذف المستعار له(المشبه)وأبقى المشبه به(المستعار منه) على سبيل الاستعارة التصريحية، وبذلك يبدو الكافر أو المنافق في هيئة شخص أصم لا يسمع شيئاً فهو معطل حاسة السمع، وهذه هي حقيقة الكافر كما تجسدها الاستعارة، وإن كان يسمع الأصوات في حقيقته ولكنه لا يدرك معانيها ولا يعي، كما يصفهم الله في موضع آخر: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣). وهم لا يسمعون فحسب، وإنما

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.
(٢) الكشاف: ٣ / ٢٣٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧١. وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٢. وسورة هود، الآية: ٢٠.

هم عميان كما تشير الاستعارة الثانية، حيث استعار للكافر (الأعمى) فهو معطل حاسة البصر وإن كان في الظاهر يرى الأشياء، ولكنه لا يعتبر بما يرى من الآيات المبثوثة في الكون أو لا يعتبر بآيات القرآن التي تؤدي إلى الاستبصار والإيمان والهُدى، هم كما يصفهم الله في موضع آخر على سبيل التعريض بهم: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١).

هم كما أوحت الكناية معطلو وسائل الإحساس والمعرفة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه وهو المعنى المُكنى عنه الذي يقودنا إليه التعبير الكنائي القائم على بنية التشبيه.

ومن خلال اثبات هاتين الصفتين (الصم والعمى) للكافرين، فإنها تنفي عن المؤمنين صراحةً ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ فهم يسمعون سماع هدى وإيمان، وهم يرون آيات الله المبثوثة في كل مكان بأبصارهم فيعقلون معانيها ويدركون مراميها فتزيدهم إيماناً مع إيمانهم.. ومن ثم فإن الكناية تنطوي على معنى مُكنى عنه يخصّهم ويتمثّل في استجابتهم لآيات ربهم حرصاً على استماعها بآذان صاغية وقلوب خاشعة. فهم قد أفادوا ممّا وهبهم الله من حواس حيّة تؤدي وظيفتها التي خُلقت من أجلها، تلك الوظيفة التي خلق الله الانسان من أجلها ليحقق بها انسانيته فيسمو بها على المخلوقات الأخرى حيث معارج النور والهُدى، لأن قلوبهم احتيت بالعلم والحق النازل من السماء، كما تصوره الكناية على سبيل التمثيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٢).

ففي الآية الكريمة ثلاث كنايات تتمثل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾. قال ابن الأثير: " هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب، وحمل

(١) سورة الرعد، الآية: ١٩. وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٣. وسورة الإسراء، الآية: ٧٢. وسورة النمل، الآية: ٨١. وسورة الروم، الآية: ٥٣. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السيول، وعلى الضلال "(١)، ففي الآية كناية بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال، والذي جوّز هذه الكنايات وجود الوصف الجامع بين الماء وهو المعنى الظاهر القريب والمعنى المُكنى عنه البعيد(العلم) فكلاهما يقوم بوظيفة الإحياء، فالماء يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي القلوب والعقول بعد موتها بالجهل، وكذلك بين الأودية وبين القلوب فكلاهما يجتمع عنده ويستقر ما يسبّب الحياة وكذلك بين الزبد الرابي وبين الضلال فكلاهما من الأوضار الضارة التي تضمحل بسرعة وتزول فلا حقيقة لها ولا ثبات.

بهذا العلم الذي أنزله الله احتيت قلوب المؤمنين فخلص الإيمان في نفوسهم، واستقر التوحيد في قلوبهم فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة (٢)، فامتازت حياتهم من حياة الكافرين التي غدت موتاً بما أصابهم من صمم عن سماع الحق، وعمى عن رؤية طريق الهُدى.

البلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خَبثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً:

يقدم القرآنبهذا التعبير الكنائي المُوحي على سبيل التمثيل حال المؤمن من جهة وحال الكافرين من جهة أخرى وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾(٣)

فالآية يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن أن الأرض الطيبة الكريمة التربة يخرج نباتها سريعاً حسناً وافياً، وأن الأرض السبخة الخبيثة لا يخرج نباتها إلاّ قليلاً لا خير فيه(٤).أما المعنى الكنائي البعيد فيُفهم من خلال فهم الآية على أنها مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ابن عباس (٥) وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك(٦) والذي يرجّح هذا التمثيل ويقويه السياق قبل الكناية لما ذكر من

(١) المثل السائر: ٣ / ٦٣.
(٢) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٨٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣. والكشاف: ٢ / ٨٨. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ٣٧٦.
(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣.
(٦) الكشاف: ٢ / ٨٨.

الماء النازل من السماء على البلد الميّت وإخراج الثمرات به ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

فالتعبير الكنائي ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ يصور حقيقتين مختلفتين: حقيقة المؤمن الذي يُؤمل منه الخير، ويُؤثر عنه الهدى، ويُرجى فيه الصلاح، وأن الكافر لا يُؤمل خيره، ولا يُحتمل نفعه، ولا يؤتمن شرّه (٢) وخبثه، فالمؤمن طيّب كما دلّت الكناية وكما يصفه القرآن في مواضع شتى (٣)؛ لأنه استجاب لآيات ربه التي أنزلها حياة للقلوب والنفوس، فهو منفتح القلب والبصيرة.. أفاد من آيات الله علماً ومعرفةً فتتجسد ثمراته بالأعمال الصالحة النافعة في بناء الحياة والمجتمع. فالكناية قائمة في بنيتها على التشبيه الضمني الذي يعقد موازنة لطيفة بين الآيات النازلة من الله وبين الأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده من جهة وبين الإنسان المؤمن الطيّب القلب وبين البلد الطيّب التربة من جهة أخرى، فكلاهما يفيد ممّا أنزله الله، فالمؤمن يأخذ الآيات ببصر وبصيرة فيستفيد منها سعادة الدارين(٤) والبلد الطيّب يفيد من الماء النازل فيعطي نباته المبارك بإذن ربه وأما الكافر فهو الخبيث كما تخرجه الكناية وكما يصفه القرآن في مواطن أخرى (٥)؛ لأنه لم يستجب للآيات النازلة من الله ﷻ فهو معطل القلب والبصيرة، فلم يسمع سماع هدى، ولم يبصر بصر إيمان، فهو ميت القلب والحواس، فهو يشبه كما دلّت الكناية بالتشبيه الضمني الأرض السبخة الجدباء التي لم تتأثر بالماء النازل من السماء فهي خبيثة نكدة لا يُرجى خيرها، ولا يحتمل نفعها، كذلك الكافر لا يُرجى منه الخير، ولا يؤتمن شرّه وخبثُه، بل تتجسد أعماله الشريرة في الواقع والحياة خبثاً ونكداً، لأنه لم يؤمن ولم يهتد بالهدى الذي يحركه ويوجهه إلى الأعمال الصالحة النافعة، فهو قد تنكّبَ عن طريق الخير والصلاح إلى طريق الشر والفساد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٦٤.
(٣) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٨٧٩. وسورة المائدة، الآية: ١٠٠. وسورة الأنفال، الآية: ٣٧. وسورة النور، الآية: ٢٦.
(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ٣٧٦.
(٥) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٧٩. وسورة المائدة، الآية: ١٠٠. وسورة الأنفال، الآية: ٣٧. وسورة النور، الآية: ٢٦.

وفي ضوء ذلك نلمح أثر الكناية في أداء المعاني بالصورة الحسية المؤثرة القريبة إلى الحس والوجدان والغنية بإيحاءاتها.

الأعمى والبصير، والظُّلمات والنور، والظلّ والحَرور، والأحياء والأموات:

ترد هذه الكنايات المتضادة في معانيها في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (١).

فهذه الآيات الكريمات يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن يتمثل في أن هذه الأشياء والمتباينة المختلفة لا تستوي، كالأعمى والبصير لا يستويان فبينهما فرق وبون كثير، وكذلك لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا تستوي الأحياء ولا الأموات (٢)، فهي عوالم متضادة مختلفة.

أما المعنى الكنائي البعيد فيفهم من خلال فهم الآيات على أنها مثل للكافر والمؤمن كما قال بذلك المفسرون (٣)، وبذلك تمنحنا الكنايات ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ و ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ و ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ و ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ دلالاتها من خلال التصوير الحسي العميق بإيحاءاتها.. فالمعنى الظاهر المباشر للأعمى هو تعطيل الحاسة البصرية لدى (الكافر)، فدلالة(الأعمى) هي انطفاء نور البصر في العين، وهي كذلك تشخص دلالة أيضاً على عطل الحواس الأخرى التي يتم عن طريقها الإدراك لدى الإنسان، والقرآن عن طريق العمى في الحاسة البصرية يعمق دلالة المعنى المُكنى عنه المتمثل في انطفاء نور البصيرة في العالم الداخلي للكافر فتتجسّد حقيقته بهذا التصوير ليثير مشاعر المتلقي وأحاسيسه حتى ينفذ إلى تأمل حقيقة الكافر الداخلية وإن بدا في الظاهر يبصر بعينيه الأشياء ويرى. وعلى الضد من هذه الصورة المظلمة للكافر تقف صورة (البصير) التي تشير في معناها الظاهر إلى نور البصر في العين الذي يتم عن طريقه رؤية الأشياء وإدراكها وعن طريق هذا المعنى الظاهر تتعمق دلالة المعنى المُكنى عنه والمتمثل في تيقّظ

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٩ -٢٢.
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠.
(٣) ينظر: الكشاف: ٣ /٤٨٠، وتفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠، ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٤١٣.

البصيرة في العالم الداخلي للمؤمن الذي تتجسّد حقيقته المشرقة بنور الإيمان المحيي للأبصار في الرؤية وممن ثم الاستجابة والإدراك في البصائر.

والإيمان المحيي للأبصار والبصائر، والكفر والضلال الميت للأبصار والبصائر بالمعنى الكنائي المصوّر يتجسّدان في الكناية التالية (الظلمات والنور) في صورة حسية تشير إلى حقيقتهما العميقة الموحية، إذ إن ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ تشير إلى معناها المُكنى عنه وهو الكفر أو الضلال، و ﴿ٱلنُّورُ﴾ يشير إلى معناه المُكنى عنه وهو الإيمان أو الهداية، وبذلك تضمّنت الكنايتان في صورتيهما الحسيتين إيحاءات عميقة دالة على تباين نوعين من الحياة تفترقان في طبيعتهما بهذا التصوير الكنائي في الحس والفكر، وهذا التباين أو التمايز بين الحياتين تنقله الكنايتان بدقة بيانية معجزة. ففكرة (الكفر) تتلبس في صورتها الكنائية الحسية (الظلمات) بصيغة الجمع دلالة على أوضار الحياة الكثيرة التي تحجب الأبصار والبصيرة، وكذلك " الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان "[1] على حين إنّ الإيمان (النور) جاء بصيغة المفرد، وفي هذا حكمة بالغة عبّر عنها صاحب تفسير المنار بقوله: " وقد أفرد النور وجمعت الظلمة هنا، وفي كل آية قُوبل فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي، بل لم يذكر النور في القرآن إلاّ مفرداً، والظلمة إلاّ جمعاً، وحكمة ذلك: أن النور شيء واحد، وإن تعددت مصادره، ولكنه يكون قوياً ويكون ضعيفاً، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة،وهي كثيرة جداً،وكذلك النور المعنوي شيء واحد، في كل نوع من أنواعه أو جزئي من جزئياته، ويقابل كل منهما ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدد، والباطل الذي يقابله كثير "[2]. فالظلمات بوصفها تعبر عن الكفر، فهي تصور طبيعة الكفر وفعله المدمر للحياة في أدق تصوير، فهو ليس (ظلمة) واحدة، وإنما(ظلمات) تسد منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة فتحجب الانسان عن ممارسة الحياة الطبيعية، لأن الحيرة والقلق هما الشعور، والتخبط هو الحركة المسيطرة على فعل الانسان في تلك الظلمات المتبلّدة بعضها فوق بعض، فالكناية تنطوي على طاقة إيحائية وتصويرية في أداء المعنى.

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٣.
(٢) تفسير المنار: ٧ / ٢٩٤.

ويقابل كناية (الظلمات) كناية (النور) التي تصور طبيعة الإيمان وفعله الباني للحياة، لأنه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة، ومن شأن التقابل بين الكنايتين أن يعمق معناهما في الحس والوجدان.

ويتحول الإيمان والكفر في التعبير الكنائي (الظل والحرور) إلى صورة حسية جديدة موحية تراها العين وتتحسسها النفس، وتفتح منافذ عدة للتفكير لتملأ هاتين الصورتين إذ تبعث الكناية (الظل) في جنبات النفس الارتياح والترويح، فالإيمان هو البلسم الذي ترتاح إليه النفس وتستقر في رحلة الحياة الدنيا وهي تواجه المتاعب والآلام والمشقات فيجد المؤمن في ظله الطمأنينة والسعادة والأمن، فضلاً عن الثواب في الحياة الأخرى، أما الكفر والضلال فهو (الحرور) بالتصوير الكنائي، ومن المعاني الحسية للحرور (السموم)، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار [1]، فالكفر يتجسد بهذه الصورة الحسية من العذاب المستمر المتصل، وذلك لأن النفس الكافرة خاوية من نعمة الإيمان، فهو العقاب في الحياة الدنيا، فضلاً عن العقاب في الحياة الأخرى، لذلك فالكافرون (أموات) ليس أمواتاً بالمعنى المألوف للموت وهو الهلاك والفناء كما قد يتبادر، وإنما أموات بالمعنى الكنائي الجديد إزاء المؤمنين (الأحياء): ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ الكافرون موتى لأنهم منطفئو الروح والبصيرة والإدراك، فهم والموتى سواء كما يقول القرآن، وكأن غاية الحياة وجوهرها كما يفهم من التعبير الكنائي يتمثل في الاستقامة والتبصر وتيقظ الروح، والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن الموت بمفهومه الكنائي ربما كان " انغماس النفس في ظلمة الحيوانية، وبقاء الروح مكفوفة الإدراك تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية " [2]، لأن الطاقة الروحية معطلة، فالكافرون يحيون في حياتهم ويتقلبون مثل أي كائن حي دون تميز أو تفاوت إذ يفقدون معنى الحياة المقصود، لأن المقصود من الحياة الإدراك والعقل فإذا عُدِما تصير الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة فتنزّل الحياة منزلته [3].

(١) الكشاف: ٣ / ٤٨٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ١٧٧ (حرر).
(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٢١٠.
(٣) ينظر: نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٢٩ - ١٣٠. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ٤٥ - ٤٦.

فالكناية بثّت الحياة في مفاصل الصورة و جدّدت معاني الكلمات في دلالات جديدة موحية مؤثرة في الحس والوجدان.

و بذلك يتجلى بالكنايات المعرفية عالمين متضادين: عالم الإيمان والهدى، و عالم الكفر والضلال على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، إذ تحقق الكناية دلالات عميقة في الحس والشعور، وعلى بساطة التراكيب الكنائية ووضوحها تمنح الفكر والنفس قوة العطاء وعمق الإيحاء في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أما الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إيحاؤها بما أخرجت المعاني والأفكار بخصوبة وحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيان الإنسان ليتملّى معانيها وأفكارها، ولتترسخ معطياتها في الفكر والنفس.